العرب
الإثنين 2021/03/29
السنة 43 العدد 12014

رهائن إيران في المنطقة

علي الصراف
كاتب عراقي

تتخذ إيران رهائن منذ الساعات الأولى لقيام الجمهورية الخمينية. أزمة رهائن السفارة الأميركية التي اندلعت في الـ4 من نوفمبر 1979 واستمرت 444 يوما قدمت إشارة ساطعة أولى على منهج سوف يتحول إلى استراتيجية عريضة تُمارس في كل مكان وعلى نطاق أوسع فأوسع، حتى انتهى الأمر بنظام الولي الفقيه إلى احتجاز 93 مليون نسمة خارج إيران فضلا عن 83 مليون نسمة داخلها.

كل هؤلاء اليوم رهائن. ومصائرهم تتعلق بما يختاره الولي الفقيه لنفسه وما يريد أن يُمليه.

سياسات اتخاذ الرهائن لم تتوقف عند حدود أزمة السفارة في طهران. إذ أنها تكررت في لبنان، ثم أصبحت نموذجا لسلوك الميليشيات في العراق وسوريا واليمن. وظلت إيران نفسها تحتجز مواطنين غربيين بتهم زائفة لكي تقوم بمقايضتهم بعملاء ودبلوماسيين ينفذون أعمال إرهاب وكل نوع آخر من الجرائم.

تستطيع إدارة الرئيس جو بايدن أن تدرك الآن أن ميولها للتسامح مع جماعة الحوثي وضغوطها لوقف الحرب في اليمن أثمرت نتيجة معاكسة.

الحوثي رفض المبادرة السعودية لوقف الحرب، ليس لأنها غير مناسبة لاستعادة الاستقرار وإعادة بناء النظام السياسي في البلاد، ولكن لأن الولايات المتحدة لم ترفع العقوبات عن إيران.

أكثر من 30 مليون مواطن في هذا البلد المنكوب يُتخذون كرهائن من أجل الضغط على الإدارة الأميركية للعودة إلى الاتفاق النووي كما تراه إيران مناسبا لها.

إدارة بايدن رفعت اسم الحوثي من قائمة منظمات الإرهاب، فرد عليها الحوثي بحزمة هجمات من الصواريخ والطائرات المسيرة ضد السعودية، فضلا عن توسيع جبهات القتال داخل اليمن.

وعندما تمسكت هذه الإدارة بالضغط على السعودية، تلقى الحوثي الرسالة على أنها ميل تسامحي يجعل كفة التوازن الإستراتيجي تميل لصالح إيران، فزاد من إرسال الصواريخ الباليستية والمسيرات.

وعندما انتهت السعودية إلى إطلاق مبادرة شملت السياسي والعسكري والإنساني دفعة واحدة، فقد رفضها الحوثي، لأن الطرق ما تزال مغلقة بين واشنطن وطهران.

ما علاقة الملايين من اليمنيين بتلك الطرق؟ علاقتهم هي أنهم رهائن.

الشيء نفسه يحصل في لبنان. فلقد تقدم الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون بمبادرة حظيت بموافقة كل الأطراف لإعادة تمويل لبنان، إلا أن الأخذ بها ظل يتعطل، أولا بانتظار الانتخابات الأميركية، وثانيا بانتظار عودة واشنطن إلى الاتفاق النووي. وعندما بدا أن إدارة الرئيس بايدن تريد أن تعود إلى الاتفاق بشروط إضافية، فقد رفضتها طهران، فانهارت المبادرة الفرنسية.

ما علاقة هذا بذاك؟ علاقته أن اللبنانيين رهائن.

خرج الأمين العام لحزب الله ليقول في خطاب إنه يريد حكومة "تكنو – سياسية" وليس حكومة تكنوقراط مستقلين، فتلقى الرئيس ميشال عون الرسالة، فقام بتشكيل حكومة على مقاسه الخاص وله فيها "ثلث معطل" لكي يدفع الرئيس المكلف سعد الحريري إلى الاستقالة، فيتم دفن المبادرة الفرنسية ويتواصل الانهيار حتى يبلغ اللبنانيون جهنم التي وعدهم بها عون نفسه.

"ينهار لبنان، ولا تبقى إيران محاصرة". ذلك هو المبدأ بالنسبة إلى حزب الله وصاحبه حسن نصرالله.

أكثر من 6 ملايين لبناني يدفعون الآن الثمن، بالفقر والجوع وانهيار أنظمة الخدمات وفشل الدولة.

لو كانت واشنطن تبعت إشاراتها التسامحية الأولى مع طهران ورفعت العقوبات لكانت حكومة سعد الحريري تركض، لا تمشي فقط، في الطريق المطلوب. إلا أنها تعثرت، ولم تخط خطوة واحدة إلى الأمام.

لماذا يجوع اللبنانيون وتنهار بلادهم على مرأى العين؟ لأنهم رهائن. والرهائن لا يحق لهم حتى أن يشكو مصيرهم البائس. ولو أنهم تمردوا ضد ما يلحق بهم من مظالم، فلحزب الله سلاح يكفي لقهرهم وإجبارهم على أن يخرسوا. إيران أولا. ثم يأتي من بعدها ما يأتي. وهناك منظومة كاملة من اليافطات الجاهزة لتبرير ذلك: مقاومة، صمود.. إلخ.

التسوية السياسية في سوريا تتعطل لأن طهران لم تعثر على "منطقة وسطى" تجمع بين نفوذها على نظام دمشق وبين مصالح الغزاة الآخرين.

كم كانت سلطة الولي الفقيه تتمنى لو أنها نجحت في إيجاد معادلة لاقتسام الكعكة مع روسيا على غرار اقتسام الكعكة مع الولايات المتحدة في العراق. ولكن ضغوطا متفاوتة من أطراف خارجية أخرى، فضلا عن معارضة داخلية تسندها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي جعلت "التقاسم" صعبا. وأدى بقاء الخطوط مقطوعة مع واشنطن أيضا إلى جعل من العسير إيجاد معادلة أخرى.

شعب بأسره يدفع ثمن نظام فاشل في هذا البلد. 17 مليون سوري أو أقل (هذا ما بقي، على أي حال، بعد 5 ملايين ممن تشردوا خارج وطنهم) يدفعون الآن ثمن نفوذ إيران في بلادهم ومصالحها هناك. هذه المصالح نفسها كانت تعني دمارا بات يتطلب أكثر من 400 مليار لإعادة الإعمار، بينما لا تملك إيران قرشا لتعيد بناء ما هدمته مدافعها وبراميل صعاليكها المتفجرة. فانتهت إلى أن تستولي على الأرض وما بقي واقفا من المباني.

لماذا يتم نهب البلد بهذه الطريقة؟ ولماذا لا تتوقف المأساة هناك؟ لأن السوريين باتوا رهينة لتسوية لن تتحقق ببقاء العلاقات مقطوعة بين طهران وواشنطن.

وهناك 40 مليون رهينة آخرين في العراق. أُنظر في حال هذا البلد، في الفساد الذي نخر كل شيء فيه، في الانهيار الذي يعم مؤسساته، في الفقر الذي يغلب على مواطنيه، في خراب مدنه، وفي تشرد الملايين من أبنائه، وستعرف أنهم رهائن لنظام تم تصميمه لكي يتحول إلى مستنقع عمائم وميليشيات وجهل، يعمل لصالح نظام الولي الفقيه فتُوجه له الموارد وتُهرب له الأموال.

الرهائن الذين سبقوا كل هؤلاء الرهائن هم الإيرانيون أنفسهم. فلقد انتهوا إلى بلد تحكمه عصابة تحت ستار دولة وهمية لم يبق منها من مقومات الدولة إلا هراء الشكليات. فتتصدرها إمّعات ودمى، ترث سلطتها من إمّعات ودمى، وكلها تأتمر بأوامر رئيس العصابة. وهذا الأخير لا يملك سلاحا أقوى من اتخاذ رهائن، ولا يتبع سياسة إلا من خلال الابتزاز بهم.

وهو يريد التفاوض، لبقاء سلطة العصابة، إنما على رؤوس رهائنه هنا وهناك وهنالك.

لبنان في غياب مرجعية... باستثناء «حزب الله»

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

يحدث في لبنان أن رئيس الجمهورية ميشال عون لا يهمّه تشكيل حكومة بمقدار ما يهمّه مستقبل صهره جبران باسيل. صهر رئيس الجمهورية ومستقبله السياسي أهمّ بكثير من لبنان، علما أنّ لا مستقبل سياسيا للصهر الذي فرضت عليه عقوبات أميركية بموجب قانون ماغنيتسكي المرتبط بالفساد.

كلّ ما في الأمر أن جبران باسيل أوصل ميشال عون إلى قصر بعبدا عن طريق "حزب الله"، ولا أحد آخر غير الحزب الذي ليس سوى لواء في "الحرس الثوري" الإيراني. من هذا المنطلق، منطلق رفض تشكيل حكومة لا تكون خاتما في أصبع الحزب، باشر "التيّار الوطني الحر" (التيّار العوني) الذي يرأسه جبران باسيل التصعيد. بات الهدف واضحا كلّ الوضوح. يتمثّل الهدف في حمل رئيس الوزراء المكلّف سعد الحريري على الاعتذار عن عدم قدرته على تشكيل حكومة بغية الإفساح في المجال أمام تولي شخصية سنّية أخرى هذه المهمّة بمباركة من "حزب الله".

لا يريد "حزب الله" حكومة لسبب في غاية البساطة يعود إلى أنّ لبنان، بالنسبة إليه، ليس سوى ورقة إيرانية. هناك في الوقت الحاضر تصعيد إيراني على كلّ الجبهات، خصوصا في اليمن والعراق وسوريا. لا يوجد سبب كي يكون لبنان استثناء، خصوصا أن رئيس الجمهورية وصهره على استعداد لتوفير الغطاء المسيحي الذي يطلبه الحزب.

من هنا، لا حاجة إلى تفسيرات وتأويلات لما يجري في لبنان بحثا عن أسباب الانهيار الذي حصل في بلد يحكمه "حزب الله".

بعيدا عن اللفّ والدوران، ليس هناك ما يدعو إلى التفاؤل لبنانيا. استطاع "حزب الله" تغيير طبيعة المجتمع الشيعي في لبنان وهو في طريقه إلى تغيير طبيعة كلّ المجتمع اللبناني في ظلّ رئيس للجمهورية لم يظهر، أقلّه إلى الآن، قدرة استيعاب لمعطيات في غاية الخطورة تجعل مصير البلد في مهبّ الريح.

من بين هذه المعطيات انهيار النظام المصرفي اللبناني، أي انهيار الاقتصاد بعدما صمد النظام المصرفي كلّ هذه السنوات الطويلة وتحوّل إلى العمود الفقري للاقتصاد. لا يوجد وعي لواقع يتمثّل في النتائج التي ستترتب على انهيار النظام المصرفي. هل يمكن تخيّل لبنان من دون مصارف مع ما يعنيه ذلك من زوال للثقة في قطاع كان من بين القطاعات التي قام عليها لبنان؟

لم يتجرّأ رئيس الجمهورية ولا صهره على النزول إلى الأحياء المسيحية في بيروت من أجل الاختلاط بالمواطنين بعد تفجير مرفأ بيروت. معنى ذلك أن ميشال عون وجبران باسيل في عزلة عن الشارع المسيحي ولا يريدان معرفة ما يدور فيه حقيقة ولا شعور الناس تجاههما.

يعتبر انهيار النظام المصرفي اللبناني وتفجير مرفأ بيروت الذي دمّر قسما كبيرا من العاصمة بمثابة دليلين على أنّه لم تعد هناك مرجعية سياسية لبنانية مهتمّة فعلا بمستقبل البلد وأبنائه. لا حاجة طبعا إلى الحديث عن كل الانهيارات اللبنانية دفعة واحدة بدءا بالمدرسة والجامعة وصولا إلى القطاع الطبّي، مرورا بالسياحة والخدمات والإعلام والخدمات. صار البلد من دون مرجعية. المرجعية الوحيدة وهي "حزب الله" مهتمة بما يحل بإيران. كلّ ما تبقى تفاصيل.

كان لافتا زيارة وزيرة العدل اللبنانية لباريس للاطمئنان على المواطن اللبناني جورج عبدالله الذي يمضي عقوبة في السجن بعد إدانته باغتيال دبلوماسي أميركي في ثمانينات القرن الماضي. قد يكون جورج عبدالله بريئا، كما قد يكون مذنبا، لكنّ السؤال ماذا عن مصير اللبنانيين المحتجزين في السجون السورية؟ لماذا لا يذهب وزير الصحّة إلى دمشق للسؤال عن هؤلاء بدل ذلك الاستعراض المضحك المبكي عن هبة من مادة الأوكسيجين قدّمها بشار الأسد إلى لبنان. من يحتاج إلى مثل هذا الأوكسيجين هم المساجين اللبنانيون في سوريا. المفارقة أن بين هؤلاء محسوبين على ميشال عون وجماعته!

كان أفضل ردّ على سعي ميشال عون وجبران باسيل إلى حشر سعد الحريري في زاوية من أجل حمله على الاعتذار، موقف الحريري نفسه. أكد الأخير أنّ لا تراجع عن تشكيل حكومة وفق مواصفات معروفة سبق لرئيس الجمهورية وصهره أن وافقا عليها في الماضي. حصل ذلك عندما جاء الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إلى لبنان مرتين بعد تفجير مرفأ بيروت. على خلاف رئيس الجمهورية اللبنانية، نزل ماكرون إلى الشارع وتحدّث إلى الناس واستمع إلى همومهم. ما اتفق عليه وقتذاك كان تشكيل حكومة لبنانية لا تضمّ سوى اختصاصيين.

لبنان في حال يرثى لها بعدما صار مجرّد ورقة إيرانية في وقت يعتقد «حزب الله» أن إيران ستتمكن من التخلّص من العقوبات الأميركية وأن الاتفاق مع الصين كفيل بإعادة الحياة إلى اقتصادها

من الواضح أن لبنان في حال يرثى لها بعدما صار مجرّد ورقة إيرانية. ليس معروفا إلى أي حدّ ستكون درجة الانهيار في وقت يعتقد "حزب الله" أن إيران ستتمكن من التخلّص من العقوبات الأميركية وأن الاتفاق الذي وقعته مع الصين كفيل بإعادة الحياة إلى اقتصادها. نعم، وقعت إيران اتفاقا إستراتيجيا في غاية الأهمّية مع الصين التي هي في حاجة إلى نفط وغاز إيرانيين. هل يعني ذلك الخلاص بالنسبة إلى "الجمهورية الإسلاميّة"؟ هل يعني ذلك أن محور الممانعة سينتعش وينتعش معه لبنان وسيتمكن "حزب الله" من إيصال جبران باسيل إلى موقع رئيس الجمهورية كما فعل مع ميشال عون؟ هذه رهانات لا معنى لها في عالمنا هذا حيث للصين مصالح خاصة بها تسمح لها بفرض شروطها على إيران وليس العكس.

المؤسف أنّه من الآن إلى انتهاء عهد ميشال عون في خريف السنة 2022، لن يعود هناك أثر للبنان. لعلّ أخطر ما يجري حاليا هو تلك التحوّلات التي تصيب المجتمع اللبناني. يهرب اللبنانيون القادرون من الفقر ومن غياب أي نشاط اقتصادي. لم يعد لدى الشاب اللبناني ما يفعله في لبنان. لم تعد العائلات اللبنانية قادرة على توفير التعليم لأبنائها. لا وجود لما هو أهمّ من التعليم في لبنان.

كلّ ما يمكن قوله إنّ "حزب الله" انتصر على لبنان واللبنانيين بعدما أفقرهم وحوّل بيروت إلى ما يشبه ضاحية فقيرة من ضواحي طهران. هذا لا يمنع من طرح سؤال واحد: ماذا سيفعل "حزب الله" بهذا الانتصار الذي عمل من أجله طويلا؟ أين سيوظّفه؟ كيف يمكن توظيفه في مصلحة المشروع التوسّعي الإيراني؟ هل سيبقى الحزب في المستقبل في حاجة إلى ميشال عون وجبران باسيل بعدما حقّق ما يريد تحقيقه... أي السيطرة على لبنان؟